«عراك الحصول على الطاعة يُربَح بالتنازل كما تعلّمنا. إن الذي يسعى إلى أن يكون مطيعًا، عليه أن يتسلّح بثلاثة أشياء: الإيمان، الرجاء، والمحبة الإلهية القدوسة».

(القديس ثيودوروس الناسك الكبير)

«إن المتواضع الحقيقي لا يتوقف أبدًا من تأنيب نفسه، حتى وإن كان العالم كله يتحامل عليه ويهينه».

(القديس بطرس الدمشقي)

«نحن الذين اخترنا الشرّ بحرية... إني أتعجّب من مشيئتنا الحرّة: إنها قوية، ومع ذلك غُلِبَت. إنها سيدة، ومع ذلك صارت أَمة. إن لها فرصة الغلَبة، ومع ذلك تفضّل بالحري الاستسلام والخطيئة».

(القدّيس افرام السوري، «المزامير الروحية»، ترجمة د. عدنان طرابلسي)

# إذا نطق الحجر

إن الحجر يُحدّد آفاق المكان، يُعطيه كيانًا ملموسًا وشكلاً ومنظرًا. إنه يضع المكان على الأرض مع أبعاده: طوله، عرضه وعمقه. إنه يكعّبه، يجزّئه ويقسّمه علبًا متنوّعة الأشكال؛ يُعطيه حجمه، يُقزّمه. فبدلاً من أن يكون المكان بامتداد النظر، فما هو إلاّ حواجز لها بدؤها وتاريخها وحكاياتها ونهاياتها. إن هذا الحجر بتراصفه وبالتحامه جنبًا إلى جنب بالآخر، باتّكاله وباستناده على الآخر بكل ثقة وبتطلّعاته نحو الآخر وبترابطه بحجر الأساس -حجر الزاوية- يُعطي البشر دروسًا كثيرة في المحبّة، في الوحدة، في التكامل العضوي وفي الانسجام.

إن هذا التقزيم للمكان هو خلق فريد من نوعه. هو إيجاد وإحداث لشيء ما كان قبلاً. إنه عطيّة لأشكالٍ لها فرادتها، جمالها وإبداعها. إن الجميل في الأمر، أن الحجر يُطيع البنّاء إطاعة كاملة، دون سؤال أو تأفّف. فالبنّاء يشكّله بين يديه، يقصّ منه، يضعه بالطول أو العرض من دون أن يحتج. الحجر قد أعطى البنّاء ثقة كاملة؛ لقد استسلم لإرادة البنّاء وحكمته، لقد خلع عن نفسه ميزاته كي يتشارك مع الكلّ في جمال الكلّ. وهكذا يُبنى الجمال بتناغم وتناسب وتلاقٍ وانسجامٍ من الجماعة إلى الجماعة متّكلين على حكمة ومهارة البنّاء.

إن آفاق المكان تُقزَّم وتُحدَّد بالحجر لأنه لم يكن في شركة مع آخرٍ سواه. كان وحيدًا من دون منازع. كُبر أناه غير مطواعة، لها كبرياؤها وعظمتها. فإن تقزيمه يُكسِّر من هذه العظمة، وهكذا يُصبح في شركة مع الحجر والبنّاء، فيُصبح علامة لها هويّتها الفريدة وأهدافها وآمالها وطموحها. فهذا التقزيم ما هو إلا انسلاخ عن أناه وقبوله الشركة مع الآخر، فيصير له هوّية كيانية جديدة - هويّة عضوية.

ما يهمّنا أيضًا من الحجر، هو ذلك الخبر الذي دار في الخفية بين جوانبه، ولم يكن عليه من شاهد إلا هو. إنه ليس للحجر أن يؤلّف ويبتدع، فليس له أية غاية من ذلك. إنه شاهد صامت، حاضر للحدث من دون ملل أو غاية. تنخر الأحداث في صلبه وتحفر فيه مدوّنة فيه أدقّ الأسرار وأيضًا أتفه الأخبار. إن في الحجر قدرة عالية على الاستيعاب والكتمان؛ إن ذاكرته لا تمتلئ؛ إنه لا يئن من طول الأحداث

ومجراها. إنه لا يتعب ولا يكفّ عن الصمود والصمت. إنه يهترئ من جراء العمر والعوامل الخارجية، ولكن هذا لا يمنعه من كبت الأسرار حتى على أصحابها الذين نطقوا بها أوّلاً.

هذا ما للحجر بشكل عام، لكن ما يهمّني هو حجر الكنيسة بشكل خاص. هذا الحجر الذي به تكوَّن البنيان لجماعة المؤمنين المصلّين وازدان بأيقونات تنفذ بالإنسان إلى الملكوت. هذا الحجر الذي امتلأت مسامه بعَبَق البخور، وتلوّنت مساحته بضوء الشموع، وتقدّست حناياه بمياه التقديس، وشهدت تعرّجاته الطقوس الليتورجية الأسرارية، وشارك فرح وحزن المشتركين، وتضرّعات وتأوّهات الملتجئين إلى الرحمة الغنيّة العظمى، وأناشيد وابتهالات العذارى والمرتّلين، والذي لانت صلابته من لمس ودموع الزائرين والمؤمنين على السواء. حجر الكنيسة هذا الذي يؤلّف وحدةً مع النفوس المرتجية الارتقاء للقاء واهب الحياة الذي أتى إليهم ودنا منهم. هنا هو مربض الفرس. فما بقي الحجر حجرًا ولا البشر بشرًا، إنما تحوّلوا بشهاداتهم ووحدتهم كيانًا مغايرًا لطبيعتهم وارتقوا إلى عمق كيانهم وجوهره.

أما ما نشهده فهذه اللامبالاة من قِبَل الإنسان، هذا التدنّي إلى ما دون الطبيعة بدلاً من الرقيّ بها، هذه العودة إلى وثنية العبادة أو إلى عبادة الذات – الأنا. نعم إننا لا ننحت الآن آلهة جديدة، ولكننا لا نعبد الإله الحقيقي الذي أعطانا من نفَسه فنكون على صورته ومثاله. نعم إننا لا نسجد في معابد عشتروت وإيزيس وغيرهما ولا نقيم احتفالات النيروز، بل إننا نعبد ما لنا ومالنا. لقد فقدنا نعمة الشركة وانسلخنا عن المؤمنين بمفاهيمنا الأناوية والملكية الفردية. وهنا الهوّة أصبحت شاسعة بين الحجر وبني البشر. الحجر بقي على شهادته وشركته وتراصفه ووحدته مع الغير، أما البعض من بني البشر فتخلّوا عن هذه الوحدة وجمال تناغمها وانسجامها فأضحت غابةً وبشاعةً.

هل يُعقل أن تلين صلابة الحجر؟
أن تتصلّب قلوب بني البشر؟
هل يطيع الذي من دون نفَس الله؟
أن يتكبّر بالأنا الذي على صورة الله تصوَّر؟
كم من الأمثولات يحوي هذا الأصمّ؟
كم من الدروس على العاقل أن يتذكّر؟
ليت الحجر ينطق

مَن له أذنان فليسمع العِبَر
مَن له عينان فليتأمّل بحكمة
إن العيون ليست فقط للنظر
ليس كلّ من نظر رأى
العمي بإمكانهم أن يروا من دون بصَر
أين أنتم من حب الله وطاعته
إنما حبنا له يمرّ من خلال الآخر

إن الحرّية التي تميّز بها الإنسان قد وهبته نعمة الاختيار التي لا يقتنيها الحجر. إنه لا يستسلم لقدَر. إن فيه قوة التغيير والتجديد. إنه إذا أطاع يسلّم نفسه إنما من دون استسلام. في هذه الطاعة وحدها تستقيم الأمور، لأن هناك تواضعًا؛ بالضعة تتطوّع الأشياء وتُصبح مطواعة فتتلاءم وتتناسق مع الغير. بذل الذات هو قمّة العطاء وذلك بالحجر الذي أطاع، والمكان الذي اتّضع، والبنّاء الذي جمّل: هي لنا دروس قيّمة وعِبر للتأمل وتفاسير لحياتنا وديمومتها إلى الأبدية.